Studies in Spirituality - Weekly Torah Portions by Rabbi Lord Jonathan Sacks zt"l

في رِحاب التّوراة

دِراساتٌ وحِواراتٌ روحانيّة مُعمّقة في النّصوصِ التّوراتيّة الأسبوعيّة مع الحاخام جوناثان ساكس

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*

Jonathan Sacks
THE RABBI SACKS LEGACY

The Original text in English and translations to other languages can be found here:
Covenant & Conversation | Chukat | Healing the Trauma of Loss | The Rabbi Sacks Legacy

"حوقات "هو النصُّ الأسبوعي السادس من كِتاب "بَمِدبار" (أي سِفر العدد). يبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع التاسع عشر ويَنتهي بِالآية الأولى من المقطع الثاني والعشرين.

الخُروجُ من الحُزن على رحيلِ الأحبّة

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

كانت وفاةُ والِدي - طيّبَ الله ذِكره - فاجعةً أليمة طحَنَت من رُحى عُمري سنتين حتى خرجتُ منها، وحتى يومنا هذا، وبالرغم من مرور عشرين سنة على رحيله، إلّا أنني ما زلتُ أتساءل لِماذا سبّب لي رحيله هذا الحجمَ من الألم، فهو لم يكُن صغيراً في السن، كما لم تكُن وفاتهُ مُفاجئة وهو على مشارف الثمانين من عمره، وقد خضع خلال عامهِ الأخير لخمس عمليات جراحية كانَت كل واحدة منها تُنهكه أكثر من سابقتها. والأهم من هذا كُله هو أنني - باعتباري حاخاماً - كنتُ مُعتاداً على تأدية الصلواتِ في الجنازات وتعزية ومواساةِ ذوي المتوفّين، بالتالي كنتُ أعي تماماً حجمَ الحُزن والأسى الذي يُخلّفه الموتُ.

كما كان كبار الحاخامات ينتقدون ذوي المتوفّين الذين يُفرِطون ويُطيلونَ فترة الحِداد والحُزن على فقيدهم [1]، موضِّحين بأن الله عز وجل بنفسِه يصِفهُم قائلاً: **"هل رحمتكُم تفوقُ رحمَتي؟"**. وفي هذا السياق يوضّح الحاخام موشيه/موسى بن ميمون قائلاً:

> لا ينبغي على الإنسان أن يُفرِطَ في حزنه وأَساه على فراق الميّت، مصداقاً لِما تذكرهُ الآية العاشرة من المقطع الثاني والعشرين من سفر يرمياهو/إرمياء والتي تقول: **"لا تَبكوا ميّتاً ولا تندبوه، ابكوا مَن يَمضي لأنه لا يرجِعُ"**. بالتالي لا ينبغي الإفراطُ في العويلِ والنواحِ على الميّت، فالموتُ هو سُنّةُ الحياة، وأحمقٌ هوَ الذي يُفرِطُ في حُزنهِ على سُنّةٍ من سُنَنِ الحياة.[2]

وتبعاً للديانة اليهودية فإن فترة الحُزن والحداد على الميّت لا يجبُ أن تتجاوز سنة كأقصى حدّ (مع بعض الاستثناءات المحدودة)، لكن معرفتي لهذه الأمور لم تُساعدني على تخطّي مِحنتي التي خلّفها فراق والدي، خاصة وأننا لا نمتلكُ القُدرة

دوماً على التحكّم بعواطفنا، وتعازي الآخرين ومواساتهُم لا تساعدك في التحضير للألمِ الذي سيصيبك عقِب وفاة شخصٍ عزيزٍ على قلبِك. والشريعةُ اليهودية تختصُّ بتوضيح المراسم الماديّة والملموسة لما يجبُ علينا القيام به في الجنازات، لكنها لا تتطرّقُ إلى العاطفة، وحتى عِندما تتطرّقُ للحديث عنها (مثلَ الوصايا التي تأمرنا بالمحبّة ونبذ الكراهية) فإن الهَلاخاه (الشريعة الدينية اليهودية) عادةً ما تُترجِم العواطِفَ إلى أفعال وتصرّفات استناداً إلى فرضيّة يطرحها "سِفِر هَحينوخ" (كتابُ التربية لحاخام مجهول الهوية من العصور الوسطى) والتي تنصُّ على أن "القلبَ يتبعُ الفِعل". [3]

لقد كنتُ أشعرُ بوجودِ فجوةٍ وجوديّة سوداء وفراغٍ عميقٍ يُسيطرُ على صميم ذاتي، لدرجة أنه قتلَ أحاسيسي وجعلني أفقِدُ النوم والتركيز، وكان يبدو لي الأمر وكأنَّ الحياة تَجري في مكانٍ آخر بعيدٍ عنّي، وكأنني أُشاهدُ فيلماً سينمائياً يخلو من أي صوتٍ وأي موضوع. وبنهايةِ المطاف تمكّنتُ من تجاوز هذه الحالة المزاجية الصعبة، لكني خلال فترة سيطرتها عليّ ارتكبتُ عدداً من أفظع الأخطاء التي اقترفتها في حياتي، وحديثي في هذه المقالة عن تجربتي الشخصية هو بمثابة مقدمة للدخول في موضوع هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التوراة والذي يحمل عنوان "حوقات".

لقد تطرّقَ هذا النصُّ إلى عدد من المواقف الصعبة التي مرّ بها بنو يسرائيل حينها، لكن أصعبها كان تذمّرهم من نقصِ الماء، أضف إلى ذلك المعصيةَ التي ارتكبها موشيه/موسى، فعلى الرغم من أنّ الله عزّ وجلّ كان قد أخرجَ لهم الماء العذب من الصخرة إلا أنه عاقَب موشيه/موسى عِقاباً شديداً لا يُحتَمَل، مِصداقاً لما تذكره الآية الثانية عشر من المقطع العشرين من سفر العدد والتي تقول: **"إنكما لم تُقدّساني أمام بني يِسرائيل، لذلك لا تُدخِلا هؤلاء القومَ إلى الأرض التي وَهَبتُهُم إياها".**

وفي هذا السياق يختلِفُ كبار المُفسّرين اليهود على ماهيّة المعصية التي ارتكبها موشيه: هل كانت معصيته هي خروجه عن طوره ومُخاطبته لِبني يسرائيل بعبارةِ **"إسمعوا أيها العاصون"**؟ (تبعاً لما تذكره الآية العاشرة)، أم تمثلت المعصية في أسلوبه في الحديث عن مُعجزة إخراج الماء من الصخرة، بحيثُ جعل الأمر يبدو وكأنه هو وشقيقه أهارون/هارون هُما اللذان أخرجا الماءَ من الصخرة، وليس الله عزّ وجلّ؟ (عندما قالا **"أمِن هذا الصخرِ نُخرجُ لكُم ماءً؟"** تبعاً لنفس الآية)

لكن الأمرَ المُحيّر هو سببُ خروجِ موشيه عن طوره، خاصة وأنه واجهَ مُشكلة مُماثلةً في السابق لكن لم يسبق له أن خَرجَ عن طورهِ بهذه الطريقة أبداً، حيثُ يذكر لنا سِفر الخروج في المقطع الخامس عشر كيف أن بني يسرائيل كانوا يتذمّرون من أن الماء غيرُ صالحٍ للشربِ عِندما كانوا في منطقة ماراه. ويذكرُ لنا المقطع السابع عشر من السِّفر نفسه بأن بني يسرائيل كانوا يشتكون من قِلّةِ الماء عِندما كانوا في منطقة مَسّاه ومَريفاه، فأمر الله عزّ وجلّ موشيه بأن يأخذ عصاهُ **ويضرِبَ** بها الصخرة، بالتالي عِندما أمَرُه الله عزّ وجلّ قائلاً: **"خُذ العَصا.. وقَوّلا** على الصخر بحضرتهم**"** (بحسب ما تذكر الآية الثامنة من هذا المقطع) فإن هذا لا يَعني أن موشيه قد اقترف جرماً عظيماً عِندما افترضَ بأن الله يريدُ منه أن يضرِب الصخرة بدلاً من أن يوجِه كلماته إليها فقط، وهذا ما قالهُ الله عَزَّ وَجَلّ لموشيه في الحادثة السابقة. بالتالي يُمكننا القولُ بأن موشيه كان يتبع الخُطوات نفسها التي أمره الله باتّباعها في المرة السابقة، ولماذا أصلاً طلبَ الله عزّ وجلّ من موشيه أن يأخذ عصاه إن لم تكُن لتلك الغاية؟

كما أن تَرتيبَ وتسلسل الأحداث هو أمرٌ آخرُ يصعبُ فهمه فعلاً، لأن الله عزّ وجلّ كان **قد وضَّحَ لموشيه ماذا يفعلُ تحديداً،** فقام موشيه بجمعِ بني يسرائيل، ثم تكلَّمَ مع الصخرة فانفجرت منها عينُ الماء، وهذه الأحداثُ جميعها وقعَت قبل كلامِ موشيه المُحتدّ مع قومه والذي ابتدأه بعبارة "اسمعوا أيها العاصون". ورُبما بإمكاننا أن نتفهّم شعور المرء بحالة من عدم الاتزان أثناء مواجهة مُشكلة تبدو وكأنها مُستعصية، والحال نفسه مرّ به موشيه في وقتٍ سابقٍ عندما تذمّر بنو يسرائيل من قِلة اللحوم. لكن ما هو غيرُ منطقيّ أبداً هو أن تكونَ في حالةٍ من عدم الاتزان عِندما يوضِّح الله لك ما ينبغي عليك القيام به حتى تحلّ هذه المشكلة مثلما وضّح لهما تبعاً لنفس الآية: **"وقوّلا على الصخرة بحضرتهم.. فتُخرِجا لهُم ماءً من الصخرِ، اسقهم وبهائمهم".** بمعنى آخر، لقد حصلَ موشيه على الحلّ، فلماذا ظلّ مُرتبكاً من المشكلة؟

بصراحة، لم أتمكن من فهم هذا الموقف حتى توفّى والدي رحمه الله. فلنسأل أنفسنا هذا السؤال: ما الذي حدثَ مُباشرةً قبل قِصة الماء النابع من الصخرة؟ تذكرُ لنا الآية الأولى من المقطع العشرين هذا الحدث: **"ثم ماتَت هُناك ميريام/مريم"،** وعِندها فقط تذكرُ لنا موضوع نقصِ الماء. وفي هذا السياق يوضّحُ أحدُ التفاسير القديمة بأن بني يسرائيل ظلّوا ينعَمون بمُعجزة وجودِ مصدرٍ للماء العذب حتى وفاةِ النبيّة ميريام شقيقةِ موشيه، وبعدَ وفاتها جفّ هذا المَصدر تماماً.

وعلى أي حال يبدو من وجهة نظري أن السّبب الرئيسيّ لجفاف الماءِ لا يَكمنُ في موت النَّبيّة ميريام بقدر ما يكمنُ في حالة عدم الاتّزان التي تسبّب بها موتُها لموشيه. فقد كانَت شقيقته الكُبرى التي اعتنَت به عندما كان طفلاً رضيعاً، وهي التي وضعتهُ في التابوت ليَجريَ به نهر النيل، وهيَ التي تقدّمَت صوبَ ابنةِ فِرعون بمُنتهى الإقدام والجرأة واقترحَت عليها أن تكونَ مُرضعته امرأة عِبرية، الأمر الذي أعاد موشيه إلى أحضان والدته مما كان ضمانة له كي يترعرع وهو يعلم هويّتهُ الحقيقية والقوم الذين ينتمي إليهم فعلاً، بالتالي فهو مدينٌ لشقيقته كونها السبب في حِفاظه على هويّته. في الوقت نفسه،

لولا وجودها لما كان موشيه بمثابة الوسيط بين الله عزّ وجلّ وبين بني يسرائيل، ولولاها لم يكُن ليُصبِح الرسول والمُحرّر والمُشرِّع لقومه. لهذا فإنّ فُقدانه لها لم يكُن مجرد فراقٍ بين شقيقٍ وشقيقته فحسب، بل كان بمثابة خسارتهِ للعمودِ الفقريّ الذي يستندُ عليه في حياتِهِ.

وعِندما يكون المرءُ مفجوعاً بوفاة عزيزٍ عليه فإنه يفقدُ السيطرة على مشاعره، فيجدُ نفسه غاضباً رغم أن حالتهُ تتطلّب الهدوء، ويضرِبُ في حين يتوجّبُ عليه أن يتكلّم، ويتكلّم حين يتوجب عليه أن يصمِت. وحتّى حين يبيّنُ الله عز وجلّ ما يُريد منكَ القيام به بطريقة واضحة ومباشرة فإنك لا تُصغي جيّداً له، لأنك تسمعُ الكلمات ولا تستوعبها.

وفي هذا السياق يطرحُ الحاخام موشيه/موسى بن ميمون سؤالاً هاماً: كيف يجهلُ يعقوف/يعقوب حقيقةَ بقاء ابنه يوسفَ حياً رغم أنه نبيّ؟ فيجيبُ موضّحاً بأن يعقوف كان في حالة حُزن شديدٍ على فراق ابنه يوسف، والشخيناه (السكينة أو الحضور الإلهي) لا تكونُ حاضرة بين ظَهرانينا عِندما نكونُ في مثل هذه الحالة[4]. لهذا لم يكُن موشيه بجانبِ الصخرةِ نبياً بقدر ما كان إنساناً قبل أيّ اعتبارٍ آخر، حيث سيطرَ عليه الحزنُ والأسى الشديد عليه مما جعل تصرفاته خارجة عن نطاق سيطرته رغم كونه واحداً من أعظم الأنبياء.

إنّ هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التوراة يتطرّقُ على وجه الخصوص إلى موضوع الموت، والفكرة التي يُسلط الضوء عليها تتمثل في أنّ الله عزّ وجلّ دائمٌ أبديّ ونحنُ مخلوقات فانيةٌ زائلة، وهذا ما نستذكرهُ أثناء تأدِيَتنا دُعاء **"أُنْتَنيه توقيف"** التي نؤدّيها في مناسبة رأس السنة اليهودية (روش هَشناه) ويوم الغُفران (يوم كيبور)، هذا الدُعاء الذي يَصِفنا على أننا البشرُ نُشبهُ "شظايا الفخار المُتناثرة، ونَصلةِ العُشبة الرفيعة، والزهرةِ الباهتة. إننا كالظلّ والسحابة ونسمة الريحِ المارِقة". فنحنُ البشرُ خُلِقنا من التراب وإليه عائدون، لكن الله عزّ وجلّ أبديّ سرمديّ دائمُ الوجود.

وخلال مرحلة مُعينة تحوَّلَ تركيزُ قِصّة موشيه والصخرة التي خرج منها الماء إلى موضوع المعصية والعِقاب، تبعاً لما تذكره الآية: **"إنكما لم تُقدّساني أمام بني يسرائيل، لذلك لا تُدخِلا هؤلاء القومَ إلى الأرض التي وَهَبتُهُم إياها"**. ولربّما نَجهلُ حقيقة ماذا كانَت المَعصية التي ارتكبها موشيه تَحديداً ولماذا خلّفَت هذا العِقاب الشديد، لكن على الأقل فإننا على دراية تامة بمَسرح الأحداث والخلفية التي وقعت في سياقها.

كما يبدو لي وكأنه يوجدُ قِصّة أُخرى في باطنِ القصة ذاتها، تماماً كما هو الحال مع العديد من القصص التوراتية عادةً، لكن هذه القِصة المُبطنة تختلفُ كلياً عن القصة الظاهرة، خاصة لو نظرنا إلى أحداثها: فهذا النصُّ يتطرّق لموضوع الوفاة والفُقدان وخسارة الأحبة، ثم تموتُ النبيّة ميريام، ولاحِقاً يُخبرُ الله عزّ وجلّ كلاً من موشيه وأهارون بأنهما لن يعيشا حتى يشهدا دخولَ بني يسرائيل إلى أرض الميعاد، ثُم يتوفّى أهارون ويُقيمُ القومُ عليه حداداً لِثلاثين يوماً.

لقد كان موشيه وشقيقهُ أهارون أعظم ثُنائيّ قِياديّ عرفهُ التاريخ اليهوديّ، فكان موشيه أعظم الأنبياء وأهارون أول كبيرٍ للكهنة، لكن شقيقتهم ميريام فاقَتهُم كثيراً في عظمتِها[5]. بالتالي فإن العبرة التي يُوضحها لنا هذا النصّ الأسبوعي هو أن لكل منا نهر أردن لن يعبرهُ، وأرض ميعادٍ لن يدخُلها لأن تلك هي "مهمةٌ لِمن يأتي بعدَك ليُكملها" (بحسب ما تذكره المِشناه في أڤوت 2:16). كما ويُبيّنُ لنا هذا النصّ أيضاً بأن مصيرَ الإنسان هوَ الزوالُ مهما بلغت عظمته، لهذا تبدأ بالحديث عن طقوس حرقِ البقرة الحمراء وخلط رمادِها بالزعتر والأرز والقُرمز ثم إذابةُ هذا المزيج كاملاً في مياهٍ جارية عذبة، ورشّ المياه على مَن لامَسوا جُثة الميّت حتى يتطهّروا قبل دخولهم مكان العبادة المقدس.

في الوقت نفسه فإنّ **نجاسة الموتِ** هي حقيقة جوهرية في الديانة اليهودية، وبالنسبة للكثير من الديانات والمُعتقداتِ عبر مرّ التاريخ فإن الحياة الآخرة تعتبرُ حقيقيّة أكثر من الحياة الدنيا ذاتها، فالآلهةُ تتواجدُ في الحياة الآخرة مثلما كان يعتقد المصريون، وفيها يتواجدُ آباؤنا وأجدادنا مثلما كان يؤمنُ الإغريق والرومان وغيرهم من الحضاراتِ البِدائية. وفي الحياة الآخرة يوجدُ العدلُ تبعاً للمسيحيين، وفيها توجدُ الجنّة مثلما يعتقِدُ الكثيرُ من المسلمين.

ومسألة الحياة بعد الموت والبعث هُما مسألتان رئيسيّتان وغير قابِلَتان للنقاش في العقيدة اليهودية، لكننا في المُقابل نجدُ حالةً من الصمتِ المُدقِع والواضح في كتابِ التناخ* عندما يتعلّقُ الموضوعُ بهذين الأمرين، لأن **"الأموات لا يُمجِّدون الله"** تبعاً لما يذكره سِفر المزامير في الآية السابعة عشر من المقطع 115. لهذا ينصبُّ تركيز التّناخ على مسألة إيجاد الله عزّ وجلّ في الحياة على هذا الكوكب بغضّ النظر عن حقيقة وحتمية الموت، لأن الله يوجدُ في الحياةِ بمخاطرها وحُزنها وأساها. ولَربّما نتجاوز مُجرد كوننا **"تُراباً أو رماداً"** بحسبِ ما تُخبرنا الآية السابعة والعِشرون من المقطع الثامن عشر من سفر التكوين على لسان أفرهام/إبراهيم. في الوقت نفسه فإن الحياة هي بمثابة نبعٍ لا نهاية له من "المياه الجارية" العذبة، وهذا ما يرمزُ له الطقسُ المُتعلقُ بالبقرة الحمراء.

بالتالي نرى أن التوراة تمزِجُ بين التشريعِ والقِصّة المُتعلقة بها بمنتهى الحذاقة والذكاء، فيأتي التشريعُ قبل وقوع الحدث، لأن الله عزّ وجلّ يمنحنا الدّواء قبل أن يوقِع بنا الدّاء. فها نحنُ نجدُ موشيه وأخيه أهارون في قمة حُزنهما على فراق شقيقتهما، وللحظةٍ معينة يفقدُ موشيه سيطرته على نفسه، فيُذكّرهما اللهُ عزّ وجلّ بأنهُ سيتوفّاهُما قبل دخول بني يسرائيل لأرض الميعاد. في المُقابل يوضِّح لنا الحاخام موشيه/موسى بن ميمون بأن هذه هي "سُنّة الحياة"، فنحنُ أرواحٌ تسكنُ أجساداً، ونحنُ بشرٌ من لحمٍ ودم ونتقدم في العمر ونهرم ونفقِد الأحباء. وخلال فراقهم نحاول الحفاظ على اتّزانِنا ظاهرياً، لكننا داخلياً نذرفُ الدمع من أعماق قلوبنا. إلا أن الحياة تستمر وما نبدأهُ نحنُ يُكملهُ الآخرون، وأحباؤنا الذين رحلوا يعيشون بداخلنا تماماً مثلما نعيشُ نحنُ داخل نفوس أحبائِنا. والمحبّةُ ليسَت أقلّ قوّة من الموت[6]، لكن عملنا الصالح لا يموتُ أبداً.[7]

مُلاحظة توضيحية من المترجم: التَّناخ هي كلمة تختصرُ الحروف الثلاثة الأولى من كلمات "توراة، نڤيئيم، كتوڤيم"(أي التوراة والأنبياء والكتابات)، ويُقصد بكلمة تناخ الكتاب اليهوديّ المقدس الذي يضم أسفار التوراة الخمسة (سفر التكوين وسفر الخُروج وسِفر اللاويين وسِفر العدد وسِفر التثنية)، بالإضافة إلى أسفار الأنبياء (وهي ثمانية أسفار: سِفر يوشَع، وسِفر القُضاة وسِفر صموئيل الأول والثاني وسِفر المُلوك الأول والثاني وسِفر إشعياء وسِفر إرميا وسِفر حزقيال، وسِفر اثني عشر الأنبياء الاثني عشر الأواخر. ويُضاف لها أسفارُ الكتابات، والتي تضمّ الهاغيوغرافيا، أي كُتُب السيرة الخاصة بالكهنة وكبار الحاخامات والشخصيات العظيمة في الديانة اليهودية، والتي تضمّ أحد عشر كتاباً، وهي سِفر المزامير، وسِفر الأمثال، وسِفر أيوب، وسِفر روث (راعوث)، وسِفر نشيد الإنشاد، وسِفر الجامِعة، وسِفرُ مراثي إرميا، وسِفر أستير، وسِفر دانيال، وسِفر عِزرا ونحميا، والجُزء الأخير من التَّناخ يضم أسفارِ تدوين التاريخ. بالتالي يضمّ التناخ بين ثناياه أربعة وعشرين سِفراً (كتاباً).

1. المصدر: Moed Katan 27b
2. المصدر: الحاخام موشيه/موسى بن ميمون، كتاب مِشنيه توراة، هيلخوت أڤيل (شرائع المُعزّين) 13:11
3. المصدر: سِفر هَحينوخ (التربية الدينية اليهودية)، الوصية السادسة عشر (يُقصد به كتاب التربية والتعليم، وهو نصٌّ يهوديّ حاخامي يُناقش بأسلوب مُمنهجٍ وصايا التوراة البالغ عددها 613 وصية، نُشِر هذا الكتاب في القرن الثالث عشر للميلاد في إسبانيا.
4. الحاخام موشيه/موسى بن ميمون، شمونا براكيم 7، استناداً إلى پساحيم 117 – أ
5. هنالك الكثير من التفاسير المِدراشية المتعلقة بموضوع النبية ميريام وإيمانها وجُرأتها ونظرتها الثاقبة للأمور.
6. أنشودة الأناشيد 8:6
7. أنظر سِفر الأمثال 10:2 و11:4

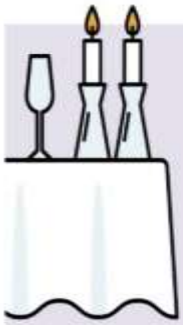

حَولَ مائِدةِ يومِ السّبتِ المُقَدَّسِ: أَسئِلةٌ لِلتَّأمُلِ

1- لماذا برأيك أثّرت وفاة ميريام/مريم بشكل كبير على نبي الله موشيه/موسى؟
2- كيف تعكس طقوس حرق البقرة الحمراء قيمة للحياة في الديانة اليهودية؟
3- كيف تساعدنا التوراة على الحياة في ظل إدراكنا لحقيقة الفناء والموت؟

● These questions come from this week's Family Edition to Rabbi Sacks' Covenant & Conversation. For an interactive, multi-generational study, check out the full edition at **https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/chukat/healing-trauma-loss/**

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism*, *Bar Ilan University*